الاحتفال في الواحات:
المعتقدات والطّقوس

Oasis Celebrations:
Beliefs and Rituals

د. أسماء الشّابي

جامعة القيروان

تونس

chebbiasma88@yahoo.fr

الاحتفال في الواحات:
المعتقدات والطّقوس

د. أسماء الشّابي

ملخّص:

نحاول، من خلال هذه الدّراسة الميدانية الأنثروبولوجيّة، التّعرّف على مجمل الخصائص التي تميّز أهل الجريد عن غيرهم من المناطق المجاورة وتحديدا مدينة توزر التي تقع بالجنوب الغربيّ للبلاد التّونسيّة وعلى طريقة احتفالهم التي تزخر بمخزون ثقافيّ متنوّع يعبّر عن المعتقدات الرّاسخة في ذهن أصيلي المنطقة وعن التّقاليد والتّراث الشّعبي سواء كان ماديّا أو لا ماديّا .

وسنحاول التّعرّف أيضا على الموروث العقائديّ الذي يكتسبه مجتمع البحث دون غيره من المجتمعات لنتبيّن خصائصه وأشكاله في مواكبة الاحتفال بعديد المناسبات مهما كان نوعها وشكل التّعبير الخاصّ بها.

الكلمات المفاتيح: احتفال، عادات، طقوس، معتقدات، موروث.

Abstract:

Through this anthropological field study, we are trying to identify the overall characteristics that may distinguish the people of Jerid from other neighboring regions, specifically the city of Tozeur, which is located in the southwest of the Tunisian country, to get acquainted with the way and how to express their ceremonial form, which abounds with a diverse cultural repository that expresses the deep-rooted beliefs in The mind of the indigenous people of the region who practice a number of customs and traditions that express the traditions and folklore, whether it is the tangible or intangible folklore of the group as a whole.

In addition to trying to identify the ideological heritage acquired by the research community and no other societies, in order to identify its characteristics and forms in keeping with the celebration of many occasions, whatever their type and form of expression.

Key words: Celebration, customs, rituals, beliefs, heritage.

1- مقدّمة:

تعتبر الاحتفالات النّتاج الاجتماعيّ والثّقافيّ لكلّ مجتمع لأنّها مكتسبة ممّا خلّفه السّلف من عادات وتقاليد وطقوس يمارسها تعبيرا عن احتفاله بمختلف المراحل الحياتيّة التي يمرّ بها و تعكس جملة الممارسات اليوميّة والمناسباتيّة المتعدّدة و المختلفة باختلاف الإطار الزّمانيّ والمكانيّ الّذي وجدت فيه. وقد اهتمّت العديد من المجتمعات بثقافتها الشّعبيّة من خلال جمعها وتدوينها ودراستها واستلهامها في أعمال وإبداعات مستجدّة، لما تعكسه من ميولات واتّجاهات ذات بعد احتفاليّ ترسّخ في الوجدان وتعبّر عن قيم تشترك فيها الجماعة. ولعلّ هذا ما دفعنا إلى دراسة الطّابع الاحتفاليّ لمنطقة "الجريد" لما تتميّز به من مخزون ثقافي متنوع يعبّر عن معتقدات أهل الجهة بصفة عامّة وعن الموروث الشّعبيّ الذي يتمظهر في عاداتها وتقاليدها.... وما يثير انتباهنا أثناء دراسة خصوصيّات مجتمع البحث ظاهرة التّبرّك بالأولياء الصّالحين و يعود ذلك إلى الدّور العقائديّ والاجتماعيّ الذي لعبه الوليّ وبصفة خاصّة إلى قدراته الخارقة وغير المألوفة حسب معتقدهم الشّعبيّ. .

ومن هنا سنحاول التّطرّق إلى أبرز الاحتفالات المميّزة لأهالي الجريد وكيفيّة تأثيرها التّحوّلات الاجتماعية والاقتصادية في الشّكل الاحتفاليّ والطّقوس الّتي يقوم بها المحتفلون.

2- الاحتفالات:

الاحتفالات نوع من الممارسات الاجتماعيّة تلتقي فيها الشّعائر والطّقوس والمراسم والرّموز والأساطير. وهي "في جوهرها عبارة عن عادات جماعيّة مورست في مناسبات مختلفة وتبلورت حول معانٍ وقيم وأحداث لا يمكن الأفراد أن يعزلوا أفكارهم ومشاعرهم عن التغنّي بها وتذاكرها في مناسباتها الدّوريّة "[1]. فالاحتفال إذن هو ذلك المتجسّد الذي يكشف عن كثير من قيم الجماعة.

إذا حلّلنا الاحتفالات بصفة عامّة نجدها تحوي عناصر دينيّة واجتماعية وفنيّة وثقافيّة في آن واحد. لذلك نستطيع القول إنّه من أهمّ وظائف الاحتفالات العامّة تعيين أهمّيّة الحادثة أو المناسبة الّتي أقيمت من أجلها والنّزول بقيم الجماعة من التّجريد إلى الواقع. ويمكننا أن نفسّر ذلك بأنّ الاحتفالات وما يندرج تحتها من شعائر وطقوس ومراسم ورموز تؤثّر في الأفراد فتجعلهم يتجاوبون عاطفيّا مع ما تنظمه من أفكار وما تثيره من صور ذهنيّة ويحدث هذا التأثير العاطفي في الأفراد بطريقة مبهمة تعلو على التّحليل العقلي والتّفسير المنطقي.

ومن هنا نتبيّن مدى التّشابك القويّ والتّداخل الوثيق بين الشّعائر والطّقوس والرّموز والاحتفالات. وهذا يرجع في الواقع إلى أنّ كلّ تلك الإجراءات الّتي تمتاز بسمات خاصّة هي التّكرار والانتظام بصورة ثابتة ومعيّنة. ومن هذه السّمات تنبع أهميّة الإجراءات التي أشرنا إليها آنفا كعامل مهمّ في تثبيت التقاليد وتأديتها. فالممارسات المتكرّرة بصفة دائمة ومستمرّة تساهم في ازدياد رغبة التّمسّك بالشّعائر والطّقوس الاحتفالية

1- الخشّاب (مصطفى)، **علم الاجتماع ومدارسه**، الكتاب الثاني(المدخل إلى علم الاجتماع) ، (د.ت)، (د.م)، ص213.

3- المعتقدات الشّعبيّة:

هي ملزمة لأفراد المجموعة وتضغط عليهم فيجدون أنفسهم مضطرّين إلى الأخذ بها لأنها بصفة عامة تساعد الأفراد على الوصول إلى الوسائل الفعّالة الّتي تعينهم على التّحكّم في البيئة، والتّصرّف في مصائرهم والاستعداد لمواجهة بعض الأحداث الطّارئة "ومن المعتقدات الشّائعة عندنا خاصّة في الرّيف والأحياء الشّعبيّة في المدن :الاعتقاد في" تحديد اليوم الذي إذا تمّ فيه الزّواج تحققّت السّعادة للعروسين كقولهم "عروسة الاثنين يزورها الحسن والحسين" أما عروسة الأربعاء "يا تطلّق يا لبيت بوها ترجع" وغير ذلك من "المعتقدات الّتي تمثّل في الواقع ما يجوز وما لا يجوز، أو ما هو مستحب، أو غير مستحب أو ما هو مرغوب فيه"[1].

4- الأمثال الشّعبيّة والأقوال المأثورة:

هي الموروث اللاّمادي والشّفويّ للمجموعة التي تنتقل من جماعة إلى أخرى تتردّد على ألسنتهم للتّعبير عن مشاعرهم وتبرير ممارساتهم وتقويم عاداتهم، فالأقوال والأمثال ظواهر اجتماعية موجودة قائمة في المجتمع وتسبق وجود الأفراد وتبقى بعد فنائهم وهي تسري بين النّاس فتظهر على أقلامهم وتناقلهم لأحاديثهم وتكون دستورا غير مكتوب يأخذون به معاملاتهم بعضهم مع بعض. والأمثال الشّعبيّة بصفة خاصّة تقوم بدور مهمّ في الحياة لما لها من قيمة تربويّة تهذيبيّة كبرى، و من الخطأ: "أن ننظر إليها على أساس أنّها مجرّد شكل من أشكال الفلكلور أو مستند أثنوغرافي خاصّ بأحوال الشّعوب إنّما هي في الواقع عمل كلاميّ يدعو قوّة معيّنة على التّحرّك، وفي اعتقاد الّذين يصدر عنهم هذا الكلام، إنّه يؤدّي إلى أقوى أنواع التّأثير على مجرى الأمور وعلى السّلوك الإنساني"[2]. ويمكن تلخيص الأمثال الشّعبيّة في كونها بشريّة وواقعيّة تتحدّث عن السّعادة والشّقاء والغنى والفقر واليسر والعسر والقبح والجمال والقوّة والضّعف والكرم والبخل. وهي من الناحية العلميّة تريح النّفس وتواسيها بما تتضمنّه من حكمة وفلسفة عمليّة، هذا فضلا على ما تنطوي عليه من أحكام خلقيّة فهي تستقبح الرّذيلة وتمجّد الفضيلة بالعبارة الصّريحة أو بالكتابة والعبارة المفعمة بالسّخريّة.

5- الأغاني:

الأغاني بأشكالها وأنواعها المتباينة من مواويل وأزجال وأناشيد دينيّة أو عاطفيّة وكذلك الفكاهات والتّهكّمات وما شابهها يتخذها المحتفلون شكلا من أشكال التّعبير عن فرحهم. كلّ هذه الوقائع وسائل تدعّم التقاليد وتزيد من تماسك الجماعة لأنّها وسائل تعمل على إبراز القيم والأفكار الّتي تعتزّ بها الجماعة وتحرص على المحافظة عليها بمداومة توجيه أنظار الأفراد إلى التّفصيلات والتّعميمات والمعتقدات الّتي

1- دياب(فوزيّة)، **القيم والعادات الاجتماعية**، دار النهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1980، ص184.

2- مكيفر وبيج، **المجتمع العربي**: ترجمة عن الانكليزية للدكتور، عيسى(علي أحمد):المجتمع العربي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، (د.ت)، ص100.

تأخذ بها الجماعة. ويترتب عن ذلك أن الأفراد في الجماعة يتعلّمون وضع الأمور في مواضعها حسب قيم جماعتهم من جهة ومعايير ثقافة مجتمعهم من جهة أخرى. فضمائرهم تصبح مفعمة بالقيّم الّتي يجب أن يتبعها. ويؤدي ذلك كلّه إلى مزيد التّمسّك بالتّقاليد ومزيد تماسك الجماعة بما تغرسه الوسائل السّابقة الذّكر في عقول الأفراد من أفكار ومعتقدات وتصوّرات متشابهة ومفاهيم مشتركة. والمعروف أنه كلّما التقى النّاس في فهم مشترك كثرت إمكانيات تعاملهم وتفاعلهم مع بعضهم البعض وزاد بالتّالي تضامنهم وتماسكهم وتأكدّت وحدتهم.

6- الاحتفال الاعتقاديّ:

تتميّز الاحتفالات الاعتقاديّة بنزوعها من الدّنيويّ نحو المقدّس فهي تبنى على جملة من الاعتقادات الخارقة الّتي تنبع من الفكر الإنساني في أولى مراحل تطوّره عندما يكون العنصر الدّيني ثابتا من ثوابته لذلك فإن "الاحتفالية الاعتقاديّة تتردّد بين السّحر والأسطورة والطّقوس الدّينيّة"[1]. وتطغى القداسة على الاحتفال القداسي وهي الّتي تميّزها وتفصلها عن باقي الاحتفالات العاديّة وإن كان يمكن افتراض أن كافة الاحتفالات ذات أصل دينيّ حافظ بعضها على قدسيّته وفقد البعض الآخر منها مبرراته، نظرا لأن الدّنيويّ أخذ محل القدسيّ، أو يجعله أقل قداسة ممّا كان عليه في الماضي نظرا لتطوّر الواقع المادّيّ والفكريّ للبيئة العربيّة الاسلاميّة. وهناك احتفالات اعتقادية ذات طابع ديني وروحي كالعيساوية، بوسعدية ، عاشوراء...

7- الطّقوس:

الطّقوس ضرب من العادات المتميزة بأصالتها وعراقتها وملازمتها للممارسات الاعتقاديّة. وهي جملة السلوكات التي يتوخّاها الفرد تجاه المقدّس لديه وتساهم في تأصيل التّرابط والتّكاتف بين الأفراد داخل المجتمع، خاصّة من خلال الطّقوس المارسة حسب مراحل الانتقال من مرحلة إلى أخرى وطقوس العبور في دورة الحياة. ويعرّفها علماء الأنتروبولوجيا الاجتماعيّة بأنّها "مجموعة حركات سلوكيّة متكرّرة يتّفق عليها أبناء المجتمع وتكون على أنواع وأشكال مختلفة تتناسب والغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها"[2].

وبالتالي فإن السّمة الأساسيّة في الطّقوس هي التّكرار والثّبات، "لأنّ الطقس هو عمل يمكن أن يكون فرديّا أو جماعيّا، ولكنّه يظلّ دائما وفيّا لعدد من القواعد التي تكوّن تحديدا ما يتضمّنه من نظام طقسيّ"[3].

وللطقوس عدّة مظاهر ورموز ولكلّ مجال شعائره الخاصّة، فنجد طقوسا اجتماعيّة وطقوسا دينيّة وطقوس الميلاد وطقوس البلوغ وطقوسا جنائزيّة. وتتخلّل هذه الطّقوس كلّ المناسبات الحياتيّة.فهي " جزء

1- خليل (أحمد خليل)، **نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية**، دار الحداثة، (د.ت)، ص216.

2 - ميتشل (دينكل)، **معجم علم الاجتماع**، (ترجمة إحسان محمّد الحسن)، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، ص176.

3 - ذياب (فوزية)، **القيم والعادات الاجتماعيّة**، المرجع السابق، ص12.

من العادات والتقاليد تعبّر عن تماسك الجماعة وعن درجة الاعتقاد والتديّن وتعكس خوفهم وقلقهم على حياتهم وواقعهم وتعبّر عن أزماتهم كما تعبّر عن أفراحهم وأنماط حياتهم وما تتميّز به من تضامن اجتماعي واستهلاك مثلما يظهر في الطّقوس الاحتفالية. وتعبر هذه الطّقوس عن المخيال الجماعي وما يرتبط به من القضايا اليومية والحاجة إلى زمن ضياع المعنى"[1].

8- تصنيف الاحتفالات في الجريد:

يمكن أن نصنّف الاحتفالات في مجتمع البحث إلى نوعين :

- **احتفالات دينيّة**: متّصلة بأحداث في التّاريخ العربي الإسلامي مثل رأس السّنة الهجريّة وعاشوراء والمولد النّبويّ الشّريف ومنتصف شعبان وتحتفل بها كل مجموعة على طريقتها باعتبارها من البدع التي أنتجتها ظروف اجتماعية سابقة.
- **احتفالات غير دينية**: تقسم بدورها إلى:

- **احتفالات موسميّة**: تتضمّن احتفال مايو/ العنصلة ودخول الرّبيع.
- **احتفالات أسبوعية**: تقام في أيّام خاصّة ومحدّدة من مجتمع البحث، يومي الأربعاء والجمعة.
- **احتفالات طقوس العبور**وهي مرتبطة بدورة الحياة من ولادة، ختان، بلوغ وزواج.

8-1- احتفالات دينية:

8-1-1- وصف عاشوراء في الجريد(توزر):

من الاحتفالات ذات الاعتبار عند العائلات بالجريد ومن أيامهم المشهورة اليوم العاشر من شهر محرّم وهو يوم عاشوراء. ومدّة عاشوراء عند أهل الجريد عشرة أيّام تبدأ منذ اليوم الثّاني من الاحتفال بعيد رأس السّنة الهجريّة وتسمّى عاشوراء عند مجتمع البحث" عاشورهْ ". ولهذا الاحتفال مميّزات وطقوس خاصّة. فنجد كلّ فئة من مجتمع البحث من نساء وأطفال ورجال لها احتفال خاص بها إلى جانب الاحتفال الجماعيّ الذي يميّز منطقة الجريد ككلّ. ومن الملاحظ أن تغيّر الفئة حسب العمر أو الجنس، يتغيّر آليّا الطّقس الاحتفاليّ والفضاء الذي يتمّ فيه وكذلك الحركات المعتمدة ويمكن أن تبرز هذه المظاهر كالتّالي:

8-1-2- طقوس الاحتفال عند الأطفال:

بداية من اليوم الأوّل من عاشوراء تبدأ مظاهر الاحتفال بهذا العيد فالآباء يحرصون على شراء "الدرابيك للأطفال الصّغار " الذين يبدؤون في زيارة المنازل مهلّلين فرحين مردّدين بعض الأغاني التي تختصّ بها منطقة البحث والتي تكون خاصّة بالأطفال والتي نصّها التالي:

1- صالح (هاشم)، **مقال الحداثة**، مجلّة الوحدة، العدد 51، ديسمبر، 1988، ص297-300.

" شايب عاشورة حنّي كول الوزف وغني

على مرا هجّالة كيلاها الذّيب خسارة

عشورتي عشورتي نا انسّل شوشتي

شوشتي العتوقة بالذهب مرشوقة

هاذا حوش سيدنا يعطينا ويزيدنا

هذا حوش عمنا يعطينا ويلمنا

هاذ احوش بوبشير فيه القمح والشعير

هذا حوش بلا مهراس يا رب يعطيه ترّاس"*

لا لالّه عاشورة فيك الحرقص فيك المرقص

واللّي يشوفك يمشي يرقص"*

وعندما ينتهي الأطفال من الأغنية تخرج المرأة فتسلّمهم إمّا نقودا أو قليلا من القمح أو السّميد وأحيانا تعطيهم بعض الخضر كالطّماطم أو الفلفل...فيردّد الأطفال شاكرين فضل تلك العائلة:

"هاذ احوش سيدنا يعطينا ويزيدنا "*

وقلّما ترفض عائلة من العائلات " الجريديّة " تسليم هؤلاء الصّغار أيّ شيء مهما كان وعندما يرفض أهل المنزل تسليمهم ما جاؤوا لأجله أو يتمّ طردهم فتجدهم معبّرين عن سخطهم وغضبهم مردّدين العبارات التّالية:

"هاذ احوش بم بم كسّارين سبعة برم"*

وهو بمثابة الدّعاء على تلك العائلة فتجد العديد منهم يركضون وراء الأطفال ليكفوا عن ترديد الدّعاء لأنّه بمثابة السّخرية منهم.

---

* مقابلة مع السّيدة جميلة سعيدي بتاريخ 18 أوت 2014، حول الأغاني الاحتفالية الخاصة بعاشوراء بالجريد، شؤون منزل، بمحل إقامتها.

*المرجع نفسه.

* المرجع نفسه.

8-1-3- احتفالات الشّباب:

للشّباب واليافعين أيضا شكل احتفاليّ خاصّ بهم فهم يقومون باختيار شخص معيّن توكل إليه مهمّة الرّقص في عاشوراء ويقوم بإعادة هذا الاحتفال في كلّ عام ويسمّى هذا عند مجتمع البحث " بوسعديّة " فبحلول عاشوراء يتمّ وضع حزام من قشر الموز على خصره و جمجمة رأس جمل فوق رأسه ويتمّ ربط الفك السفلى للجمجمة بخيط ليتمكن من تحريكه و يتمّ تغطية ملامح وجهه ويبدأ في التجوال في المدينة رفقة مجموعة من رفاقه فيحاول تخويف المارّة في شكل احتفاليّ فيه نوع من المرح والطّرب ويحمل أحد من رفاقه "كبّوس " ويقوم كلّ يمرّ حذوه بإعطائهم النّقود كلّ حسب مقدرته*.

8-1-4- احتفالات النّسوة:

كلّ ليلة من ليالي عاشوراء منذ انطلاقها تجتمع النسوة في الزّوايا القريبة مغنّيات مردّدات بعض الأغاني الخاصّة بهذه المناسبة وتحرص المرأة أيضا في مجتمع البحث على ملء القلال والجرار الكبيرة بماء الوادي منذ اليوم الأوّل من دخول عاشوراء وحفظه وتغطيته وعدم استعماله إلاّ في اليوم التاسع ليلا أي ليلة عاشوراء كما أنّ النّسوة طيلة الأيام التسعة من عاشوراء لا يتبرّجن ولا يتجمّلن فلا تسرّح المرأة شعرها ولا تستحمّ ولا تتمّ مراسم الزّواج في عاشوراء أيضا ولا يقمن بأعمال النّسيج ولا يضعن الحنّاء وهي بمثابة أيّام حزن وحداد عندهنّ حزنا على ما حدث لسيّدنا الحسن والحسين عندما قتلهما اليهود في شهر عاشوراء وقاموا باللّعب برأسيهما واحتفالا بهذا الحدث وتعبيرا عن فرحتهم، خضّبوا الحناء وتجمّلوا لهذا نجد مجتمع البحث يقوم بعكس الأعمال التي قام بها اليهود حزنا على سيّدنا الحسن والحسين*.

8-1-5- احتفالات الرجال:

عادة ما يخرج الرّجال وخاصّة الأغنياء والأعيان منهم زكاة على أموالهم وممتلكاتهم في عاشوراء وتوزيعها على اليتامى والفقراء والأرامل وتسمّى هذه الزكاة عند مجتمع البحث بـ"العشور" ولا تخرج "العشور" إلا في عاشوراء. كما يقوم الأغنياء و "الملاّكة " خاصّة في مجتمع البحث بالقيام بجولة على المنازل ليسألوا إن كان لديهم طفل ليتمّ ختانه في عاشوراء فيجمع كلّ واحد ما بين ثلاثة وخمسة فيتكفّل بكلّ مصاريف ختانهم. وللملاّكة في مجتمع البحث أيضا عادة تحديد صفّ من النّخيل في غابته ويكون بشرط على الطول وقد يحتوي على عشرين أو ثلاثين نخلة يخصّصها لليتامى والفقراء ويسمّيها بأسماء أحد الاولياء الصالحين (مثال يقول: هذا صفّ سيدي المولدي...")وعندما يقوم ببيع المحصول فإنّ هذا الصّف لا يدخل في البيع وإنّما يبيعه بعد بيع محصوله ويخصّص ثمنه لختان الأطفال والتّكفل بكلّ مصاريفهم من مأكل ولباس ...

---

* مقابلة مع السيد خالد بن عبد الرحيم انينة بتاريخ 20 جانفي 2014، حول طقوس الاحتفال بعاشوراء عند الشباب، صاحب مكتبة إسلامية، بمكان عمله.

* مقابلة مع السيدة فاطمة مصباح بتاريخ 18 أوت 2014، حول طقوس الاحتفال بعاشوراء بالجريد، شؤون منزل، بمكان اقامتها.

وقد ترتبط عاشوراء بطقوس دورة الحياة فبالنسبة إلى الولادة وعلى حدّ قول مجتمع البحث فإن "عاشوره" أو التّسعة أيّام من عاشوراء لا تلد فيهم المرأة وإذا أنجبت مولودا فإنّ الجميع يعتبره فأل شؤم وإذا حدث وأن ولدت المرأة فإنّ صغيرها عادة ما يكون مريضا وفي غالب الأحيان يكون يرتعش "يرعش" *.

أما بخصوص الوفاة فيعتبر الذي يموت في "عاشورة" لا يتحلّل ولا تمسّه السّوسة في القبر أي أنّه يبقى " قْدّيدة عاشورة " فحسب اعتقادهم أن الميت حتى وإن فتح قبره بعد سنوات عديدة يجدونه على حالته التي دفن فيها.

ومن الطّقوس التي يقوم بها مجتمع البحث عدم فتح الخوابي والبراميل المخصّصة للزّيت ولا تمشط النساء التي أسماءهن فاطمة وفاطمة الزهرة وخديجة وعيشة ومباركة شعورهنّ مدّة تسعة أيام في عاشوراء وهذه الأسماء بالذّات لأنّها أسماء زوجات الرّسول وتسمّى عند مجتمع البحث "المباركات " أي يتبرك بأسمائهنّ ولكن هناك حالة واحدة تُعدّ استثناء لتتمكن النسوة من تسريح شعورهن والقيام بعملية النّسيج وهي إمكانية نزول المطر في أيام عاشوراء ومن بعض الطّقوس التي تحرص المرأة على القيام بها في عاشوراء هي شراء قطع من الحلوى ووضعها في مفترق طرق بشرط أن لا تلتفت إذا وضعتها إلى أن تصل منزلها وهذه الحلوى يأخذها أي شخص يمرّ من ذلك الطّريق وهو طقس تقوم به المرأة التي تأخر سنّ زواجها *.

8-1-6- و- طقوس الاحتفال بعيد عاشوراء:

اليوم العاشر هو يوم الفرح والاحتفال فنجد الجميع يهلّل ويعبّر عن فرحته بهذا العيد ويسمّى "عيد عاشورة" فالأطفال الصغار يجتمعون عادة في "البحبوحة" ويأتون بكلّ ما جمعوه في أيام جولتهم على المنازل من قمح وسميد وخضر ثمّ تجدهم مجموعات مع بعضهم كلّ مجموعة تقوم بطهي الطّعام في ذلك اليوم وتسمّى "خُلُوطَةْ" أو "خُلِّيطةْ" ويكون طهيها على الحطب ويكون في شكل مسابقة فيما بينهم وعند الانتهاء تجدهم يتذوقون "الخلوطة"

أما الشباب فيقومون بإلباس واحد منهم قبّعة طويلة الشّكل تتّخذ شكل القرطاس ويزيّن هذه القبعة بالمرايا ويضعون له حزاما مشكّلا بقطع حديدية من أغطية المشروبات وذلك في مستوى الخصر ويقومون بصنع أنواع من الآلات الموسيقية المحلّية التي تخصّ هذه المناسبة وهي تسمى عند مجتمع البحث بـ" الشكشيكة " وهي عبارة عن مجموعة من علب الطّماطم الفارغة يتمّ ملئها بالحصى ثمّ إغلاقها بواسطة حجارة في مستواها العلوي المفتوح لتحدث عند تحريكها صوتا. وعادة ما يغطّي الشّاب وجهه بلحية وشاربين يغطيان أغلب أجزاء الوجه.

* مقابلة مع السيدة سعيدة بنعلي، بتاريخ 20 أوت 2014، حول طقوس الاحتفال بعاشوراء بتوزر، شؤون منزل، بمنزلها.

* مقابلة مع السيدة جنات بوقيطة ، بتاريخ 22أوت 2014، حول طقوس الاحتفال بعاشوراء، بمحل إقامتها.

أما النسوة في اليوم العاشر فيقمن بالاحتفال بالاستحمام من ذلك الماء الذي تمّ ملئه وحفظه ويقال عند مجتمع البحث "يعشروا أبدانهم *" ثمّ يسوّكن ويكحلن . وعادة ما تقصّ النساء والبنات القليل من شعورهن ويقال "يعشّروا شعورهم" وهذه العادة تحرص عليها المرأة ليزداد طول شعرها.

أما الرجال فكان بالجريد هناك رجل معروف يدعى "ابّايا" ومعه آخر يسمّى "حمّة جاوي" هما مختصين في الاحتفال وتنشيط هذا اليوم دون غيرهم فيجوبان الشوارع وهم يرقصان ثمّ يلتفّ الرّجال في شكل حلقات كبيرة ويكون " بو سعدية " في وسطهم يرقص والكل يغني الأغاني الخاصّة بعاشوراء. وتقوم النّسوة بتحضير دمية خاصّة بعاشوراء(شكل رقم01) وهي عبارة عن قطعتين من الخشب وعادة ما تكون قطعة الخشب التي توضع في المنسج وتسمّى "ڨايمة" وتكون في شكل عمودي ثم تُلَفّ بقطع من القماش وتكون ممتلئة في مستوى الوسط ثم يوضع " غربال " في الوسط و يُشدّ بحبال إلى الأعلى في مستوى قطعة الخشب العليا وبذلك يتم تثبيته ثمّ تلبس هذه الدمية ثوبا نسائيّا عادة ما يكون "جبّة " أو ما يسمّيه مجتمع البحث "جوخة " ليغطّي كامل جسمها. وتسمّى عند الانتهاء من تحضيرها عند مجتمع البحث بـ" الشّابّة " التي تُزيّن بإلباسها "حرام " وبعض الحليّ الذي تلبسه المرأة في مجتمع البحث ويكون تحضيرها في اليوم التاسع وقديما كانت النسوة في اليوم العاشر من عاشوراء ترتدي لباسا جديدا ويتجمّلن ويلبسن حليّهن ويتّجهن إلى الزّوايا القريبة منهن ليشاركن في احتفالات عاشوراء حيث تساعدن بعضهن في إعداد وسط جوّ احتفالي بهيج. وبعد أن يأكل كلّ الحاضرين من نساء ورجال وأطفال يتم إحضار "الشّابة " حيث تمسكها امرأتان لتقديمها أو تأخيرها وتبقى امرأة وراءها لتقوم بتحريكها من الخلف في مستوى الخصر لتظهر "

الشابة " للحاضرين وكأنها ترقص، وفي نفس الوقت تبدأ مجموعة أخرى من النّسوة في الغناء وعادة ما تغني امرأة وتساعدها الأخريات في الغناء والعزف على " الدّرابيك " و" البنادير "* .

شكل(01):مراحل تحضير الدّمية الخاصة باحتفال عاشوراء "الشابّة"

* أبدانهم: يقصد بها مجتمع البحث أجسادهم.

* مقابلة مع مجموعة من النسوة في إطار الاحتفال بيوم عيد عاشوراء: علجية نبيلي، الهذبة نبيلي، مباركة نبيلي، سعاد نبيلي...بتاريخ 02 سبتمبر2014،

شكل(02):مراحل تحضير الدّمية الخاصة باحتفال عاشوراء "الشابّة"

8-2- طقوس الاحتفال بليلة منتصف شعبان بالجريد:

يحرص مجتمع البحث في ليلة منتصف شعبان على الصّوم لأنها من الأشهر الحرام وهي سنّة يسعون إلى تكريسها إلى جانب حرصهم على طبخ "الكسكسي" وتوزيعه على العائلات الفقيرة ومن الطّقوس التي تمارس في هذه المناسبة هي أن يقوم الفرد بالخروج وسط المنزل ليلا فلا يشعل النور ويبقى على ضوء القمر فقط فيقف ليرى ظلّه معكوسا بالقمر يقوم وقتها برفع يده اليمنى مفتوحة في الظل فإن رأى أصابع يده مكتملة فهو سيعيش للسنة القادمة وإن لم يرها ورآها بدون أصابع أو في شكل "دبّوس" على حدّ تعبير مجتمع البحث فإنه لن يعيش وسيكون وفاته في خضمّ تلك السنة أي ما إن يحلّ منتصف شعبان من السّنة الموالية حتى توافيه المنيّة حسب اعتقادهم. وهناك طقوس أخرى تمارس في تلك الليلة أيضا فيعوّض اليد بالرأس فيتبع الفرد نفس الحركات فإن رأى أذنيه موجودتين في رأسه فسيعيش وإن لم يرها فهو سيموت حسب المعتقد الشائع. كانت هذه الطّقوس المتعلّقة بهذه الليلة يمارسها الجميع فيما مضى لكن في وقتنا الحالي قلّما نجد من يعرفها في مجتمع البحث بحكم التّقدم والتّطور الذي حصل في المجتمع الجريديّ بصفة عامة إلى جانب ذلك قد يتدخّل العامل النّفسيّ الذي لا يشجّع الفرد بممارسة مثل هذه الطّقوس ولعلّ الخوف أيضا من المستقبل المجهول يحول أيضا دون ممارستها

وعادة ما يعاود أهل الجريد بمناسبة منتصف شهر شعبان الذهاب إلى حفظة القرآن وبعض الائمّة ليكتبوا لهم تمائم تحفظهم من الأذى وخاصّة من العقارب والحشرات السّامة وهو ما يعبّر عنه بـ"الهوايش" فهذه التميمة لا تقرب " العقرب " حسب اعتقادهم مدّة سنة كامل المنزل وغالبا ما تخطّ فيها "آية الكرسي" لتعلّق في أبواب الغرف كما يتمّ تثبيتها بعجن القليل من التمر أو " العبود " وإلصاقها في الحائط. فهذه اللّفافة "تحصّن من لدغ الحيّات ويكشف مخبأ العقرب وحتّى تكون التعويذة ناجعة تكتب وفق توقيت

دقيق وبالتحديد عند الفجر"[1]. وقد صادفنا في بيت أحد المستجوبات* أحد هذه الأوراق وقد أخبرتنا بأن "الطالب" الذي يقوم بكتابة هذه الأوراق قبل وفاته أوصى ابنته بإعادة كتابتها لتكون مرقونة وتقوم كلّ سنة بطباعتها وإعطائها لمن يرغب في ذلك وربما هذا يعود لرغبته في مواصلة هذه العادة التي قد تنتفي بموته وربما لتحصيل الثواب والدعاء له بالرحمة بعد وفاته.

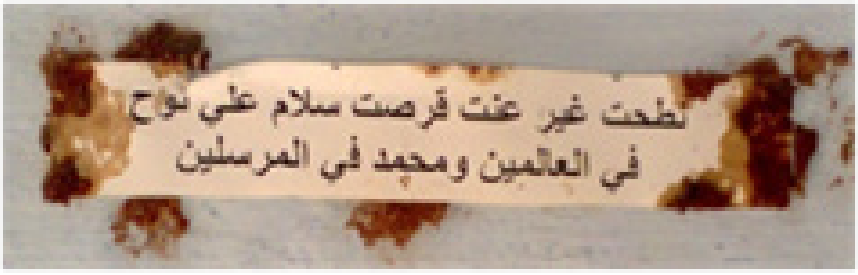

شكل(03): اللفافة الخاصة بمنتصف شعبان[2]

3-8- احتفالات المولد النبوي الشريف بالجريد:

جرت العادة بمناسبة ذكرى مولد الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن تقام احتفالات تعبّر عن الفرح والبهجة عند مجتمع البحث. وتتمّ حركة نشيطة في تزويق المنازل بتبيضها وطلاء الأبواب والجدران، وتنظّف الأسواق والزوايا والمساجد والجوامع التي تشهد حركية غير عاديّة احتفالا بهذه المناسبة حيث يتم تزيين جامع الزاوية القادريّة ب الأنابيب الكهربائية والأعلام وتضاف له الألوان ويقع تزويقه فيخرج عن شكله العادي ومن مظاهر الاحتفال ايضا بالمولد النبوي الشريف هو سماع صوت المقصّدين ويسمّى " التقصيد " فيكون الذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم كما تعلّق بعض اللافتات التي تكتب عليها بعض مطالع الاغاني الدينية .

ومن أكثر الزوايا تشهد حركيّة واضحة هي الزاوية القادريّة بالجريد التي تجمع العديد من الناس من جميع أنحاء البلاد والتي تقام فيها مسابقات ترتيل وختم القرآن وتسليم الشهائد والجوائز وتحضر الفرق السّلامية التي عرّفها الحشايشي في كتابه العادات والتقاليد التونسيّة: "نسبت هذه الطريقة إلى الشيخ سيدي عبد السّلام الأسمر دفين بلد زلطين من عمل طرابلس والعمل الجاري في كيفيّة ميعاد الشيخ وأعمال الإخوان هو أن يقفوا بمكنا رحب على شكل حلقة وبيد كلّ واحد منهم دفّ كبير من الجلد ويضربون جميعا بتلك الدفوف على وزن مخصوص مقفّى يسمّونه في عرفهم بحرا"[3].

وللسّلاميّة "أناشيد مخصوصة تؤدّى بصوت واحد خفيف أو ثقيل بنوع تجويد وترخيم وترجيع.

1- القهواجي(حسين)، باب الجلاّدين، **مرجع سابق**، ص 34.

* مقابلة مع السيدة الزهرة الجريدي حول طقوس الاحتفال بمنتصف شعبان.

2* صادفنا في بيت نفس المستجوبة هذه اللفافة الخاصة بمنتصف شعبان.

3- الحشايشي بن عثمان محمد، **العادات والتّقاليد التونسية**، مرجع سابق، ص218.

وطيلة أيّام المولد يجوب الأطفال الأنهج والأزقة مردّدين الأغنية الخاصّة بهذا الاحتفال ومولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

"ميلودة ميلودة

علاّله حليمة

ربّايته نبينا

يا صلاة الصّالية

يا نجوم العالية

يا ربّي غيّر لوكاس يا ربيّ

على ذرّ الناس يا ربّي

طيّر بو شوكة يا ربيّ

على ذرْ ملوكهْ يا ربّي

دار سيدنا بنوها من بعيد تبان

غير صلّوا عنّبي وانعلوا الشيطان

حليمة جاباته

واليامنه ربّاته

اليامنه جابت نبينا غير صلّوا على النبيّ"

وفي ليلة الاحتفال بالمولد النّبويّ الشّريف يخرج كلّ الاطفال من منازلهم حاملين قناديل يصنعها لهم أباؤهم أو أمهاتهم متمثلة في وعاء تمّ الاستغناء عنه وتثبّت في عصا طويلة قليلا كي لا يحترق الطّفل بالشّمعة المشتعلة الذّائبة ويبدأ الصّغار بعد صلاة المغرب بالجولان في مختلف الأزقّة والشّوارع مردّدين:

" هذا قنديلك يا حوّا يضوي في ظلام اللّيل"

ثمّ يتجهون إلى الجوامع القريبة والزّوايا للمشاركة في الاحتفال الدّينيّ الذي يكون داخلها. وفي هذا الإطار يصف ابن أبي الدينار تلك الليلة فيقول: "وتسهر المدينة المزدحمة على ترانيم المدائح النّبوية وعلى دقّ الدّفوف المفتوحة للزّائرين والغرباء وتنوّر المساجد والجوامع والأولياء ويتلى فيهم القرآن المجيد وربّما تجمّعت الجوقات أي جماعات الأحزاب وجابت الطرقات والأسواق وهي تلهج بالأناشيد والمدايح والأذكار إذ يزيّنون المكاتب وربّما يجعلون ديدبانات وهي المعبّر عنها بالاصطلابات وتقرأ فيها التخاميس وتنشد الأبيات الشعرية التي تضمّنت مدائح خير البريّة وتوقد القناديل وتسرج الشّموع وتكون تلك الليلة أشهر ليالي سنّتهم

ويصنعون الأطعمة الفاخرة احتسابا لله تعالى وربما يجعلها بعضها للمباهات والتفاخر ولكلّ امرئ ما نوى،وتكون ليلة عظمى يقع فيها السّماع والأناشيد والمدايح النبويّة ويهرع النّاس إليها من أطراف البلد عندهم من اللّيالي العقم"[1].

وفي صبيحة يوم المولد تنهض النسوة باكرا لطهي العصيدة وتتمثّل في عصيدة الفارينة أو عصيدة السّميد وعادة ما تكون فطور مجتمع البحث في صباح يوم عيد المولد. ويعرّف ابن منظور العصيدة في حديث خولة: " فقرّبت له العصيدة وهو دقيق يلتّ بالسّمن ويطبخ ويقال: عصدت العصيدة وأعصدتها أي اتّخذتها"[2]. وعادة ما ترسل النّسوة العصيدة إلى الزّاوية القادريّة والجوامع القريبة منها.

ولكنّنا نلاحظ في وقتنا الرّاهن أنّه تمّ الاستغناء نسبيّا على عصيدة الفارينة أو السّميد وتعويضها بعصيدة "الزّقوقو" التي أصبح مجتمع البحث ينفق أموالا لتحضير هذه العصيدة لأنّ مستلزماتها غالية وهي عادة دخيلة على مجتمع البحث وبرزت في السّنوات الأخيرة القليلة.

وهكذا يتّخذ المولد في منطقة البحث شكلا من الفخامة والاحتفال حسب المقابلات التي تمّت مع بعض المستجوبين.

9- احتفالات موسميّة(سنويّة):

9-1- احتفال مايو بالجريد:

يحتفل أهالي الجريد إلى عهد قريب احتفالا عظيما يعرف" باحتفال مايو" و يوافق أوّل مايو العجمي أي ما يقابل 14 ماي الشّمسيّ من كلّ سنة ولهذا اليوم قصّة تنحاز نوعا ما إلى باب الطّرافة من حيث الصّورة العامّة وقد ترتقي إلى مستوى التّعجيز من ناحية أخرى فقد روت المستجوبة قصّة فرعون وزوجته قائلة: "فرعون غضب على مرته وحب يطلّقها كيف جا خارج قالها كان تحبّي تبقي في دارك نحب كيف نجي نلقاك لا قاعدة ولا راقدة ولا واقفة ولا في السماء ولا في الوطا ولت هي عملت درجيحة"* لتنفذ من عقابه وتنفذ ما قاله لها*. ففي صباح يوم مايو عادة ما تطبخ النّسوة "الكسكسي بالبرتلاق" تجتمع النسوة في مجتمع البحث نساء وصبايا ويقصدن الوادي ويأخذن معهن الأمشاط ليسرّحن شعورهن ويمرّرن عليه الماء ويستحممن ثمّ يأخذن الليف من النخلة ويعقدنه في شكل حبال ويربطنه بين نخلتين ليكون في شكل أرجوحة أو ما يعبّر

1- ابن أبي دينار (محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، لبنان- بيروت، الطبعة الثالثة، 1993، ص334.

2- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد)، **لسان العرب**، سبع مجلدات، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1998، ص365.

* مقابلة مع السيدة فاطمة مسغوني بتاريخ 16 جانفي 2013، حول احتفالات أهل الجريد الغير دينية (مايو والعنصلة)، شؤون منزل، بمقر إقامتها.

* البرتلاق: هو نوع من الخضر التي توجد في غابات الجريد وهي نبتة ذات أوراق صغيرة تشبه نوعا ما البقدونس ونبتتها حين تمسّها تجد فيها الماء في داخلها.

عنه مجتمع البحث "درجيحة" ويصعدن فوقها مردّدات الأغنية الخاصة بهذا الاحتفال السّنوي ليوم مايو قائلات:

"وش قال الطّير قال حاح وحاح

وش قال النقّه لقا مالية في شقّه

فَرْعُونْ طَوّلْ شَعْري قِدْ النَّخْلَه وِالعَرْجُونْ

فَرْعُونْ وْكَبّرْ قَعْرِي قد نخلة عمي سحنون

فَرْعُونْ طَوِّلْ بَدْنِي وْكَبِّرْ صَدْرِي

فَرْعُونْ طَوّلْ شَعْري قِدْ النَّخْلَه وِالعَرْجُونْ

فَرْعُونْ"

وبذلك يتوسّل الصبايا إلى " فرعون" كي يمنحهن الجمال. وتتعالى بذلك الزّغاريد ويتواصل الاحتفال طيلة يوم كامل. وعلى الملّاك في هذا اليوم أن يقدّم قفّة للشّريك تسمّى "قفة مايو" تحتوي كل ما يلزمه وعائلته لإعداد عشاء تلك الليلة من لحم ومال وجميع لوازم طبخ عشاء فاخر، غالبا ما يقضي الفلاّحون تلك الليلة في الواحة في جو احتفالي بهيج فتتعالى أصوات البارود و تردّد الأغاني وفي الصباح يعمل الشريك على تحضير "الدلو" الذي ينزعه من النخلة وقد يحترف الكثير من الخمّاسة في صنع "الدلو" بواسطة "السعف" ويملأه بخيرات الغابة الموجودة في وقت الاحتفال بمايو ثمّ يحملها لبيت الملاّك.

وقد بين عبد الرحمان أيوب أن هذا الاحتفال يقام لتطهير الفتاة العذراء في مياه الأنهار والسّواقي والبحيرات. وقد يعود هذا الاحتفال إعادة مصرية قديمة "[1].

وترى صوفي فرشيو أنّ هذا التزامن بين الاحتفال والرزنامة الفلاحية يمتدّ من شمال البلاد إلى جنوبها وأنه يعود إلى أسباب اقتصاديّة خاصّة في شمال البلاد إذ يبدأ الاحتفال في فصل الصّيف إثر انتهاء موسم الحصاد لأنّه في هذه الفترة يشهد الأهالي تحسّنا في أوضاعهم المادّيّة سواء لمالكي الأراضي الفلاحيّة أو للعمّال وهو ما يساعدهم على مجابهة مصاريف احتفالهم السّنوي[2].

1 أيوب(عبد الرحمان)، **من الألعاب التّقليديّة بالجنوب التّونسيّ**، دراسات مسرحيّة، عدد 4-5، مارس 1995، ص 49-50.

2- ferchiou (sophie), « ***les fetes maraboutiques en tunisie-« zarda*** », in actes du premier congre d'études des cultures **méditerranéennes d'influence arabo-berbere**, société nationale d'Edition et de diffusion, alger, 1973, Pp.533-534.

9-2- احتفال العنصلة:

يحتفل مجتمع البحث بالجريد بيوم "العنصلة" وبالتحديد اليوم الأوّل من شهر أوسّو وهو ما يوافق شهر "أوت" واحتفالا بهذا اليوم تقوم النّسوة في مجتمع البحث بإخراج الثيّاب من الصناديق ويتمّ نشرها على الحبال المخصّص لها ثم إخراج "الفرماس" ويقمن بغسله ويضيفون له القليل من الملح ثمّ يتمّ نشره في الشّمس كي يحافظ على نكهته وقيمته الغذائيّة وعادة ما تطبخ النسوة في "نهار العنصلة" خبز "المطبّقة" أو "الكسرة بالشّحم" أو الملاوي وفي حال نزول المطر في يوم العنصلة تقوم النسوة في مجتمع البحث برفع ملابسهن إلى رؤوسهن لتنزل المطر على أجسادهن ويردّدن في جوّ ملئه الفرح والبهجة :

" يا نو أوسّو
نحيّ علينا ما نهسّوا*
وأعطينا ما ندسّوا "

اعتقادا منهنّ أنّ المطر الذي ينزل في هذا اليوم هي شفاء لهنّ من الأمراض وهي فأل خير. لكنّ هذا الاحتفال بالعنصلة لم يعد موجودا في وقتنا الحالي فلا نجد أحيانا من يعرف معناه أو الشّكل الاحتفاليّ الذي كان له قديما*.

9-3- احتفال دخول الربيع:

يحتفل أهل الجريد اليوم الأوّل من دخول فصل الرّبيع أحسن احتفال. وتستعدّ المرأة لهذا اليوم بتحضير لوازم إعداد "البركوكش" وهي أكلة تُطبخ في كلّ بيوت الجريد دون استثناء وتضع فيه كلّ أنواع اللّحوم و تطبخ كمية أكثر من المعتاد لأنّها ترسل "البركوكش" لجاراتها وصديقاتها وهو ما عبّرت عنه المبحوثة: " نذوّقوا بعضنا". وبعد تناول الغداء يستعدّ الجميع للذهاب إلى الصحراء لغاية استقبال الرّبيع على حدّ تعبيرهم. وعادة ما تتّفق العائلات والجيران للذّهاب في محفل كامل مع بعضهم البعض حاملين معهم الدّرابيك للاحتفال (ويأخذون معهم المشروبات الغازيّة والماء وكلّ ما يمكنه أن يدخل الفرحة والبهجة على نفوسهم) فتجد الصّحراء في هذا اليوم كأنّها في عرس فالناس جالسون في شكل مجموعات فهذه المجموعة تغنّي والأخرى ترقص، والتي بجانبها تزغرد ويستمرّ الاحتفال باستقبال الربيع إلى حدود صلاة المغرب حيث تنتهي مراسم الاحتفال بهذا اليوم البهيج فيرفل الجميع راجعين إلى منازلهم*.

---

* نهسّوا : يقصد بها المرض.

* نفس المقابلة مع السيدة فاطمة تخصّ الاحتفالات بالجريد، التّاريخ نفسه، المكان نفسه.

* مقابلة مع السيدة ساسية مباركي، بتاريخ 24 ماي 2014، حول طقوس الاحتفال بدخول الربيع، شؤون منزل، بمقر سكناها.

10- احتفالات أسبوعية:

يمكن القول إنّ الاحتفالات الأسبوعيّة تخصّ بعض الطّقوس الرّوحيّة التي غالبا ما تعتمدها الفتيات لغايتين تتمثّل الأولى في التّعجيل في الزّواج خاصّة وأن أغلب الفتيات في وقت بعيد كنّ يتزوجن في سنّ مبكرة أمّا الثّانية حسب تقديري فتتعلّق بالغاية الاحتفاليّة التّرفيهيّة إذ تجتمع الفتيات والنّسوة لتمضية الوقت خاصّة بعد إنهاء الأعمال المنزليّة اليوميّة الشّاقّة من نسج وغزل ورحي في وقت ما... فتكون هذه الممارسات والطّقوس التي تأخذ طابعا سحريّا و روحيّت في بعض الأحيان متنفّسا لهنّ ومناسبة للاجتماع في فضاءات مختلفة ومتباينة أحيانا أخرى لكي تعمّ البهجة والفرح التي يمتزج معها الخوف من خلال بعض الطّقوس السحرية والروحية كمحاولة تسخير الجان لقضاء الحاجة وهذه الطّقوس أيضا يمكن جدولتها أيضا وتقسيمها حسب أيام الأسبوع فلا يكون اعتمادها اعتباطا أو صدفة ويمكن تصنيفها حسب التّوزيع الزّمنيّ للأسبوع أي حسب الأيّام وكذلك حسب التّوقيت في النّهار أو في اللّيل وهي كالتالي:

10-1- طقوس احتفالية خاصة بيوم الأربعاء:

تقام في هذا اليوم العديد من الطّقوس الاحتفالية التي تهدف إلى الزّواج، وعادة ما ترافق مرحلة البلوغ، رغبة في الاستقرار العائلي ويظهر ذلك من خلال الاجتماع الاحتفالي للنّساء في مجتمع البحث والذي يطبع بالفرح والبهجة والزّغاريد والمأثورات القوليّة ومن بين هذه الاحتفالات التي تقام في هذا اليوم نذكر:

10-1-1- سماع الفال:

تستعد الفتيات في مجتمع البحث لعملية "سماع الفال منذ الصباح حيث توكل مهمة طلب "البخور"* لإحداهن من "صاحبات السّعد". ويكون عادة يوم الأربعاء قبل صلاة العصر حيث تجتمع الفتيات في فضاء منزل إحداهنّ وتقمن بإشعال "كانون" من الطّين يكون جديدا وتضعنه وراء باب المنزل ثم تقف الفتاة بجانب الكانون وتقول:

" بابنا يا بابنا يا خشب ڨابس
جبناك أخضر وليت يابس
ماذا دخلت من عرايس
مذا مرقت من فرايس
بينلي سعدي بين السعود
وراجلي بين الرجال
وداري بين الديار
وڨبري بين الڨبور"

* البخور: هو ما تطلبه الفتاة لتتم عملية سماع الفال ويتمثل في الشندقورة، التابل، الكمون، الجاوي، أم الناس، القرنفل.

يَا جَانْ يَا رَايِسْ

مَاذَا دَخِّلتْ مِنْ عَرَايِسْ

مَاذَا خَرّجْتْ مِنْ فِرَايِسْ

جِيبْلِي فْلانْ وِلْدْ فَلانَه

عَطْشَانْ وْرِيقَهْ يَابِسْ

رِجْلِيهْ فِي لْوِطَا وْعِنِيهْ فِي السّمَا

جِيبُوهْ جِيبُوهْ وِسْطْ أَحْضَانِي لَوْحُوهْ فِي لْمِنَامْ حَيْرُوهْ"

وتحضر معها عشبة تعرف "بالشَّنْدِقُورَه" لتعجيل النّصيب في الزّواج، لأنه حسب اعتقاد مجتمع البحث "الشَّنْدِقُورَهْ تْنَجّي البُورَه"، ثمّ تملأ فمها بالماء دون أن تشربه فلا تتكلمّ أيّ كلمة ثمّ ترمي "الشَّنْدِقُورَهْ" في الكانون ليتصاعد الدّخان منه وتبقى صامتة تسمع "الفال" ولا تغادر المكان حتى تنتهي الرّائحة والدّخان المتصاعد من الكانون. وأيّ كلمة تسمعها هي فأل بالنّسبة إليها. وختاما لهذه الحركات والطّقوس تقوم بإفراغ الماء الذي كان في فمها في الفضاء الخارجي للمنزل.

وعادة ما تتجمّع سبع بنات غير متزوّجات في آخر أربعاء من كلّ شهر في واد المشرع، ويلبسن لباسا أصفر ويبخّرن بالجاوي الأحمر، إذ يعتقدن أنّ الوادي يسكنه جان أصفر وغالبا ما تردّد كل واحدة منهنّ جملة من الأدعية مُستنجدة بالجان وقواه الخارقة لجلب الشّابّ الذي تودّ الزّواج منه فتسخّره بواسطة الرّوائح (البخور) الذي يحبّه الجان فتحرص على إشعال "كانون" ورمي "البخور" اللاّزم مردّدة الكلمات التالية:

"النَّاسْ تْقُلّكْ مُرُّ صُبَرْ

وَأَنَا نْقلّكْ الجَانْ لَصْفِرْ

سَرّجْ حْصانِكْ وْزَلْزِلْ أَقْدَامِكْ

وْجِيبْلِي سَعْدِي وْبَخْتِي كَالسْلُوكْ قِدَّامِكْ"

وبعد ترديد هذه العبارات تطلق الفتاة الزغاريد متمنّية الحصول على العريس الذي في خاطرها فتذكر اسمه واسم أمه ليعرفه الجان ويقوم بجلبه إليها باعتماد قدراته الخارقة ردّا للجميل لأنّها أهدته ما يريده من روائح.

2-10- طقوس احتفاليّة خاصّة بيوم الجمعة:

المقصود بها هو "وعدة" أو نذر يقدّم يوم الجمعة لأنّه يوم مقدّس عند المسلمين وعند مجتمع البحث بصفة خاصّة فهو يوم الصّلوات وتعدّ المرأة في مجتمع البحث يوم الجمعة يوما خاصّا خصوصا إذا كانت لها أمنية أو أنها مريضة وتطلب من الله الشفاء فتكون واسطتها "لالّه الجمعة" ونذرها إن تحقّقت أمنيتها هي إعداد أو "تطييب باقيه" على حدّ تعبير مجتمع البحث وهناك من تقوم بتحضير "الملاوي" وتضعها في إناء جديد ونظيف وتقوم بإرسالها للجامع ليقرأ لها المصلّون بعد صلاة الجمعة فاتحة ثمّ يدعون لها بأن يحقّق الله طلباتها ثمّ توزّع على الحاضرين.

يمكن القول إنّ أغلب الممارسات التي تعتمدها الفتيات في مجتمع البحث تكون في يوم الجمعة أو ما يعبّر عنه بـ"ليلة الجمعة" أي يوم الخميس ليلا وقد تحمل العديد من الدّلالات لأن يوم الجمعة هو اليوم المقدّس في المأثور الإسلامي، وقد سمّاه الجاهليون "يوم العروبة".

ونجد طقوسا أخرى تكون فأل حسن و تحمي الصبايا من السحر وتقيهم من الحسد وتساعد على الزّواج المبكّر، ومنها نذكر طقس "السَّبْعْ شْعِيرَاتْ"، أي سبع حبّات شعير إذ تقوم الفتاة الرّاغبة في الزّواج بطلب سبع[1] حبّات كمّون أخضر وسبع حبّات من الشّعير وسبع حبّات من التّابل والقليل من "أمّ النّاس" وبعض الجاوي الأحمر من "صاحبة سعد" أي متزوّجة من رجل ميسور الحال ولها أبناء ذكور ولم تتزوّج سوى مرّة واحدة وهو ما يعبّر عنه مجتمع البحث بـ "مَا بَدْلِتْشْ لُوْجُوهْ". فتقوم الفتاة بخلط ما جمعته ثمّ تضعه في قطعة قماش خضراء اللّون يتمّ جلبها من أحد زوايا الأولياء الصالحين بالجهة وجعل كلّ المكونات في شكل صرّة، ثمّ تنزع سبع خصلات من شعرها وتربطها بخيط أبيض، وتردمها في حافة الوادي في الصّباح الباكر. وبعد ثلاث أيّام، تعود الفتاة، رفقة أمّها أو إحدى قريباتها إلى ذلك المكان، فإن وجدت الصرّة في مكانها فإنّ الفتاة لن تتزوّج إلاّ بعد وقت طويل وإن وجدت الخيط فقط ولم تجد الصرّة فإنّها بشارة بزواجها القريب.

11- طقوس احتفاليّة خاصّة بدورة الحياة:

1-11-الختان:

تحرص الأم على اغتسال ابنها واستحمامه ثمّ تخضّب له إحدى المحترفات يديه بالحنّاء ويسمّى هذا اليوم بـ"نهار التّلبيس" لأنّ الطّفل يرتدي الملابس الخاصّة بالطّهور ثمّ تلبسه أمّه ريحانة* جدّته الذّهبية والجلاب في رقبته ويسير الطّفل في موكب احتفاليّ يسمّى "المحفل" يحضر فيه الرّجال والنّساء وعادة ما يركب الطّفل

1- ولعلّ تكرار رقم سبعة (سبع حبّات من الشّعير وسبعة حبّات من الكمّون وسبعة حبّات من التّابل...) قد يلفت الانتباه ويطرح تساؤلا حول ماهية هذا الرقم عند مجتمع البحث لان اعتماده وتكراره ليس اعتباطيّا وإنّما قد يرجّح الأمر لما يحمله من دلالات رمزية ومعاني جليلة ومقدّسة وقد ذكر في القرآن الكريم فيمكن أن نستدلّ بأن عدد السموات سبعة وأبواب الجنة سبعة...ولعلّ سبع حبات القمح هي كناية عن أهل الكهف وقد يحملنا الأمر أيضا أن حبات القمح والشعير هي كناية لقصة سيدنا يوسف السّنابل السّبع والبقرات السّبع...).

* الريحانة: هو الذهب الذي تلبسه الجدة في الأيام العادية وعادة ما يتمثل في حوتة وخلال والنبيلة.

على جواد ويسير بقية الحضور على الأقدام لزيارة الأولياء الصّالحين في المنطقة. وعادة ما يكون "المَحْفل" مصحوبا بفرقة إنشاد تنتسب إلى الطريقة القادريّة تسمّى "الحزب" وهي تردّد بعض الأغاني في مدح الرّسول عليه الصّلاة والسلام.

فيطوف الموكب بالأولياء الصّالحين فتكون البداية بزيارة الوليّ الصّالح "سيدي حمد زريبة" أو "بوّاب المدينة". يزوره الصبيّ قبل الختان مرتديا اللّباس التّقليديّ "جبّة" و "كبّوس" و "بلغة" ويداه ورجلاه مخضّبة بالحنّاء تدخله عائلته إلى قاعة الضّريح وتقرأ الفاتحة ثمّ الدّعاء.

ثمّ ينتقل لزيارة زاوية " سيدي حمد الغوث" ثمّ "للاّ سرولة" وفي الأخير تكون زيارة الزاوية القادرية وهذا ما لاحظناه خلال العمل الميدانيّ فعادة ما يزور سكان منطقة التبابسة والقيطنة وأولاد الهادف هؤلاء الأولياء لكن سكان بوليفة وجهيم وصحراوي وعباس أيضا قبل يوم الختان يأخذون الصّبيّ إلى "قبر" الوليّ "سيدي يوبا" حيث يضعون له الكحل في عينيه والسّواك في فمه ويغسلون يديه ورجليه بماء الوادي مع زغردة النّسوة والغناء ثمّ يعودون أدراجهم ويبدأ حفل الختان. أمّا الآن فقد أصبحت الزّيارات قليلة جدّا لأنّ الطّريق المؤديّ إليه لم يعد صالحا للعبور.

ومن الطّقوس التي يحرص عليها مجتمع البحث وضع الرّجل اليمنى للأم في إناء به ماء أثناء عملية الختان كي لا يتألّم الطّفل حسب اعتقادهم و يساعد على التّخفيف من الآلام التي تصحب عمليّة الختان. وعند الانتهاء من الختان تعلو الزّغاريد ويكسر أحد الرجال الحاضرين إناء من طين "طاس" مملوءا بالحلوى في باب المنزل ليلتقط الأطفال الصغار الحلوى المتناثرة منه. ثم يسلّم الطّفل عادة لأمه لتهتمّ به ويتقدّم المهنّئون ليضعوا في يديها النّقود أو "الرّمو".وبانتهاء هذه اللّيلة تنتهي مراسم الاحتفال بالختان*.

2-11- الزّواج:

ترافق المراسم الاحتفاليّة للزّواج عدّة عادات وتعابير طقوسيّة ارتبطت رأسا بالأولياء الصّالحين إذ يؤكّد مجتمع البحث ضرورة تخصيص يوم قبل انطلاق الاحتفال بالزّواج لزيارة الأولياء الصّالحين تبرّكا بهم وعادة ما يكون هذا اليوم في الأسبوع الذي يسبق تاريخ بداية الاحتفال بالزّواج وهو يوم "التّزوير" لحماية العروس من الجان والنّفس والأذى ويمثّل هذا اليوم احتفالا بالنسبة إلى النسوة فتعد الأم أو البنت الوليّ الصالح أنّه إذا تحقّق لها ما تريده ستقوم بزيارته وتختلف الممارسات والطّقوس باختلاف الولي وباختلاف المنطقة التي تنتمي إليها العروس وعائلتها. فنذكر على سبيل المثال أن سكّان منطقة التّبابسة يقصدون في العادة مقام الوليّ الصّالح "سيدي إبراهيم الرّيغي". تزوره العروس رفقة الصّبايا اللاّتي يحتفلن معها أي "الحجّابة"* قبل البدء في مراسم الزّفاف فيعلو قاعة الضريح الزّغاريد والأدعية ومدائح رسول الله ويملأ البخور المكان. وتقرأ العروس الفاتحة ثمّ تتقدّم الوكيلة فتعطيها "علاما" تضعه على رأسها طيلة أيّام الزفاف تبرّكا بالوليّ،

* مقابلة مع السيدة تبر الزبيدي، بتاريخ 23فيفري 2014، حول طقوس الاحتفال بالختان بالجريد، شؤون منزل، بمحل إقامتها.

* الحجّابة: وهنّ مجموعة من الصّبايا اللاتي يلازمن العروس منذ بداية العرس ويحرصن على راحتها).

وتعقد الصّبايا أطراف "العلامات" الموجودة في قاعة الضريح ليتعجّل زواجهنّ. وعند خروجهنّ يتوجّهن إلى مقام "سيدي حمد الغوث" ثمّ يقصدن بعد ذلك مقام "للّا سرولة" مزغردات مهلّلات مردّدات الأغاني الاحتفاليّة.

وبعد انتهاء الزّفاف تعود العروس لإرجاع "العلام" ومعه النّقود والبخور والشّموع.

أمّا بالنسبة إلى سيدي أحمد بن عثمان فيعده أهالي منطقة سيدي عبيد "بكسوة " أو "علام" وبالشّموع والبخور والنّقود. وتزور العروس أيضا "سيدي عبيد لبيض وسيدي عبيد لخضر" قبل البدء في مراسم الزّفاف.

لكن الأمر قد يختلف تماما بالنسبة إلى متساكني منطقة عبّاس الذين يزورون مقام "سيدي تواتي" فترافق العروس صديقاتها إلى مقام الوليّ الصّالح للزيارة وقراءة الفاتحة. و تردّد الحاضرات عند ولوج ميضاة للّا الخضرا "ياللاّ الخضرا اللي يزورك يبرا"، ثمّ تدخل العروس للاستحمام وإذا كان الزّفاف في فصل الشّتاء، تكتفي بغسل وجهها وأطرافها ثمّ تلصق البعض من حنّتها على جدران الميضة وتعطي للصّبايا قليلا من الحناء والسّواك. وفي حال تعذّر على الفتاة الذّهاب إلى "سيدي تواتي" يُحضر أحد أفراد عائلتها الماء من ميضاة للّا الخضرا لتغتسل به في منزلها ولازال متساكني عبّاس يحافظون على هذه العادة إلى يومنا هذا لاعتقادهم أنّ في ذلك ضمان لسعادتها واستقرارها. وإذا تزوّج رجل ينتمي إلى عرش سيدي تواتي أو يقطن بمنطقة عبّاس بفتاة غريبة عن المنطقة فإنه لا يبدأ حفل ليلة الزفاف إلّا إذا دخل رفقة عروسه إلى قاعة ضريح سيدي تواتي وقرأ الفاتحة وتزور عروسه "للاّ الخضرا" ثمّ يبدأ مراسم الزفاف. وغالبا ما تعمد أمّ العروس أو إحدى قريباتها إلى ملئ جرّة من ماء هذه الميضة في اليوم الأوّل من أيّام العرس، ويعرف "بيُومْ البدوْ" وتضعها في الغرفة التي تقيم بها العروس طيلة أيّام عرسها وتسمّى "دَارْ الحِجْبَه".

وتزور العروس بمنطقة القيطنة قبل البدء في مراسم الزّفاف "سيدي حمد زريبة" وتأخذ من قاعة الضريح "علام" وعندما ينتهي الزفاف تعود العروس إلى الولي لإرجاعه وفي غالب الاحيان تأتي بعلام جديد. وقد تحرص الحجابة والعروس في منطقة صحراوي على زيارة "سيدي عبد الله العيتوت" بعد صلاة العصر وخاصّة يومي الخميس والجمعة لتقدم الشّموع والجاوي والكسكسي باللّحم ويشوين اللحم خارج "القبّة" ويوزّعن الشّاي والقهوة على الحاضرين.

ونشير في هذا الإطار إلى أنّ هذه العادات قد تلاشى منها الكثير ولم يعد الأهالي يهتمّون بمثل هذه المناسبات نظرا إلى التطور والتقدّم الذي شهدته البلاد التونسيّة بعد الاستقلال إضافة إلى نسق الحياة السّريع ولكن يحاول الناس في مجتمع البحث الحفاظ على هذه العادات ومواكبة القليل من الاحتفالات .

12- احتفالات الأولياء الصّالحين:

يعتقد أهل الجريد في المقامات والزوايا وخير دليل على ذلك كثرة الأضرحة الموجودة في المنطقة. ولعلّ من أطرف الأشياء التي أدلى بها بعض أفراد مجتمع البحث هو أن كلّ مجرى مياه أو وادي على حدّ تعبيرهم يوجد بقربه ضريح من أضرحة الأولياء الصالحين كضريح سيدي يحي وضريح سيدي غريب وضريح سيدي عمار نصير وضريح سيدي عساكر وضريح سيدي مطير...

ويحرص السّكّان على الإيفاء بالنّذور والوعود وإقامة الاحتفالات الموسميّة المعروفة باسم "الزّرد" ولعلّ أشهرها "زردة سيدي تواتي" وزردة "سيدي مرزوق" وزردة سيدي عبد السّلام"....واحتفالا بهذه الزردة، تقام الحضرة وسط جوّ احتفالي بهيج يجتمع فيه الشوّاش (وهم المسؤولون عن الحضرة وعن بقيّة عناصرها) فيرقصون ويقومون بالبدع والخوارق وذلك بتحويل التراب الذي يتمّ رميه في الكانون فتتصاعد منه رائحة الجاوي إلى جانب الكلام بلغة غير مفهومة وهي "التّركي" ويقال في هذا الإطار " يضرب بالتّركي " كما يقوم أهالي منطقة البحث بزيارة المقامات والطّواف بها في بعض المناسبات السّعيدة كالزّواج والختان أو عند مرض أحد أفراد العائلة.

13- الخاتمة:

حاولنا استنطاق الذّاكرة الجماعيّة واستقرائها لرصد الطّقوس والعادات التّي يمارسها المجتمع الجريدي في بعض من الاحتفالات الدّينيّة أو غيرها بهدف رصد التغيّرات التي قد تطرأ بتغيّر الاحتفال سواء بالنّسبة إلى الفضاء أو الحركة أو الطّقوس أو كذلك على مستوى الشّكل أو المضمون. وسعينا إلى توثيق الموروث الثقافي المتميّز للجريد في شكله القديم والحديث.

وقد حاولنا كذلك استخراج بعض الثّوابت والمتحوّلات في بنية الذّاكرة الشّعبيّة انطلاقا من التّركيبة الذّهنيّة وخاصة الممارسات الطّقسيّة التّي خضعت لقانون التّعويض لارتباطها بمقتضيات الواقع أو ما يعبّر عنها بالضرورة والجدوى. وقد بيّنت لنا هذه الدراسة الميدانية أن الذّاكرة الشّعبيّة الجماعيّة هي زمنيّة متواصلة قائمة على الاستمرار تنتقل مشافهة أي بواسطة اللّسان من خلال عملية التّذكّر التّي يستحضر فيها المستجوب وضعيّات وأحداث سابقة سواء من خلال عمليّة التّذكر سواء لمعايشته تلك الأحداث أو من خلال سماعه لها. كما تأثرت الذاكرة الجماعيّة بالتّغييرات الماديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة. لكن في المقابل حافظت العديد من العناصر على استمرارها وصمودها وحتى إن شملها التّغيير في الشّكل مع المحافظة على الجوهر والمضمون واستنتجنا أيضا أن التغيّر شمل كذلك الجوانب الماديّة وفي أغلب الاحتفالات في حين بقيت بعض العناصر المعنويّة ثابتة وصامدة. ونسوق في هذا الإطار مثال إهمال بعض الاحتفالات كزيارة الأولياء الصالحين وقد يرجع إلى التّدهور الذي طال العديد من الأضرحة والمعالم الدّينية بالمنطقة إلى جانب تخلّي البعض عن زيارة الأولياء الصالحين بخصوص الاحتفالات التي تخصّ مراسم الزّواج أو الختان. كما خضعت الزردة للتغيير وهذا أملته الضّرورة الحياتيّة وتشعّب الحياة المدنيّة لتصبح الاحتفالات خلال العطل المدرسيّة ليكون الاحتفال في شكل تظاهرة ثقافية أو مهرجانا تحضره الشّخصيات الرّسمية في الجهة

فيكتسي أهمية على الصّعيد الجهوي أحيانا أو الوطني. وقد يعتبر ذلك حلاّ توخته المجموعة للحفاظ على تراثها. وقد خرجت هذه الاحتفالات من طابعها الدّيني العقائدي الرّوحاني القدسي الى طابع فرجوي ترفيهي للترويح عن النفس و الخروج ولو بعض الوقت من روتين الحياة العصريّة. أصبحت هذه الاحتفالات تعبّر عن مدى تطوّر العصر إذ أصبحت تزخر بمخزون تراثي وشعري هائل في إطار المهرجانات لما توفره هذه العروض من عائدات ماليّة هامة.

فالممارسات الجديدة فرضتها الحياة العصريّة ليست عشوائيّة، بل محدّدة ومضبوطة تحت أنظمة وأنساق ثقافية تؤدّي فيها هذه الاحتفالات الدّينيّة وظائف التّوازن والضّبط الاجتماعي وتستجيب لحاجيات الإنسان المتجدّدة. وهذه الأنساق تعكس وتواكب هذه التغييرات في المجتمع وجعل الثقافة المكتسبة تتأقلم مع متطلّبات الحياة العصريّة، حيث تختفي الثقافة التقليديّة شيئا فشيئا وتظهر مكانها ثقافة أخرى تواكب حياة الإنسان الجديدة جنبا إلى جنب ثمّ تترسّخ بدورها وتشكّل عادات وطقوسا مميّزة للبيئة الجغرافيّة والإنسانيّة.

المراجع:

1. ابن أبي دينار (محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، لبنان- بيروت، الطبعة الثالثة، 1993.
2. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد)، **لسان العرب**، سبع مجلدات، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1998.
3. أيّوب (عبد الرحمان)، "***التراث الشعبي المروي حول منهجية جمعه وتصنيفه***"، المجلة العربية الثقافية، عدد 15، سبتمبر، 1988.
4. برنشفيك (روبار)، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، الجزء الثاني، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
5. الحشايشي (محمد بن عثمان)، **العادات والتقاليد التونسية، الهدية والفوائد العلمية في العادات التونسية**، مجموعة سراس للنشر، تونس، 1994.
6. الخشّاب (مصطفى)، **علم الاجتماع ومدارسه**، الكتاب الثاني (المدخل إلى علم الاجتماع)، دون تاريخ نشر.
7. خليل (أحمد خليل)، **نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية**، دار الفكر اللبناني، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1995.
8. ذياب (فوزية)، **القيم والعادات الاجتماعية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1987.
9. صالح(هاشم)، "***مقال الحداثة***"، مجلّة الوحدة، العدد 51، ديسمبر، 1988.
10. القهواجي(حسين)، **باب الجلاّدين**، المطبعة العربيّة، تونس، 1995.
11. الكناني (عيسى)، **تكميل الصلحاء والاعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان**، المكتبة العتيقة، تونس، 1970.
12. مكيفر وبيج، المجتمع العربي: ترجمة عن الانكليزية للدكتور، عيسى(علي أحمد):المجتمع العربي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، دون تاريخ نشر.
13. ميتشل (دينكل)، معجم علم الاجتماع، (ترجمة إحسان محمّد الحسن)، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.
14. الهبائلي(محمد السعيد)، **كشكول الجريد**، مخابر مآثر للانتاج الثقافي الرقمي، توزر- تونس، 2013.
15. Ferchiou (Sophie), « ***Les fêtes maraboutiques en Tunisie- Zarda*** », in Actes du premier congrès d'études des cultures Méditerranéennes d'influence Arabo-Berbére, Société Nationale d'Edition et de Diffusion, Alger,1973.